قصّة قصيرة

الوشيع

عبد السلام السيدي

جاء إلى وشيع الصُبَّيْر لجني ثماره الشهيّة الصفراء ذات الأشواك الوبريّة المؤذية.. يؤرجح قفّة... وبيده الأخرى عصا تنتهي بحلقة معدنية تُدخَل فيها الثمار المزروعة على أوراق رحوية خضراء شائكة. ظلّ منتصباً في هذا الدرب الهاجع تحت وطأة القائلة، يلوذ بالصمت. وثمّة شعور خفيّ من الخوف، والترقّب، يزيده ذلك الفراغ المخيف. بقميص مقلّم طويل مهترئ، وأرجل حافية تضرب في الرمضاء، ووجه شاحب امتصّ نضارته الجوعُ الكافر.. انحنى على الأرض المتربة يرفع بقبضته حفنة من التراب يذرّها لمعرفة اتجاه الريح التي لم يكن لها وجود إلاّ في الأعالي حيث ذوائب الأشجار الملوّحة في الأفق.. بآليةٍ ذرّ الرمال، وبحلق فيها لرصد حركة النسيم.. عمل ذلك لتلافي وقوع الأشواك الأبرية في عينيه.. هكذا كما لقّنوه.. رفع عصاه بيده محاولاً إدخال ثمرة الصُبَّيْر في حلقة الحديد.. عاوده الخوف بشكل جنونيّ.. تذكّر كلام أمّه الناصحة، وتحذيرات جدّته العجوز العمياء. قال في نفسه بوجل: «لو يباغتني ذلك اللّعين.. سيقتلني، ويرمي بجثّتي في البئر».

جذب ثمرة الصُبَّيْر الناضجة بكلّ قوّته.. تكسّرت الورقة الخضراء الشائكة التي بدت كراحة اليد أصابعها ثمار صفراء ناضجة.. هرب بعيداً محاولاً تلافي الأشواك المتساقطة، ترامى إليه حفيف الأوراق، وخشخشة خالها انسياب ثعبان، أو حركة الريح.. تَملّى الوشيع بأشواكه الخضراء المؤذية.. نباح مجنون ينطلق مباغتاً آتياً من وراء السياج، وصوت أبحّ يصيح: «ماذا تفعل هنا يا ابن الكلب...» انحنى يخطف قفّته، وانطلق تاركاً عصاه ملقاة في إهمال فوق الرمال اللاهبة، يركض.. يركض، وبين الفينة والفينة، يلوي رقبته إلى الخلف لرصد حركة ملاحقه.. رآه وكلبه، يركضان نحوه.. كان الكلب أبيض، والرجل قصير القامة بديناً، يلوّح بعصا غليظة كثيراً ما هوت على جسد أحد الصبية تحطّمه بقسوة. قال في نفسه: «آه لو وقعتُ في قبضته لرمى بي في البئر..» أخذ يركض بأنفاس لاهثة، حتى ولُوجه قرية أكواخ الصفيح المتناثرة على الأرض كبثور. أقعى أمام كوخهم القابع تحت شجرة زيتون كبيرة.. استشعر بألم ممضّ في أخمص قدمه، تربّع في جلسته، وشرع ينظر في أخمص قدمه الجريح.. تحسّس بيده الجُرح النازف بدم دَبِق.. انتصب متحاملاً، وانطلق يحجل على قدم واحدة.

لمحته أمّه القاعدة في السقيفة تطحن الشعير بالرحى الحجريّة، نهرته قائلة: «كفّ عن اللعب يا حلوف!!». ها هي بغضبها الأبديّ.. حالة يعرف منها أنّه سوف يعاقب بالضرب.. جدّته تقول عن ابنتها عندما تراها غاضبة بأن ثمّة عدداً من الطيور السوداء غير المرئيّة تحيط بها.. عادت تصيح به بنبرة قاسية: «لِمَ هذا العبث، أيّها اللّعين؟!» اقترب منها، واضطجع إزاءها على التراب. طفرت الدموع من عينيه، وأخذ يعول ببكاء تقطعه العبرات.. مدّ ساقه يُريها جُرحه النازف في أخمص القدم. خفّت إلى المطبخ لجلب علبة البنّ.. أخذت قليلاً من البنّ بين إصبعيها السبّابة والإبهام لإيقاف تدفّق الدم.

قالت بخوف: «إنها شظيّة زجاج.. كم حذّرتك من المشي حافياً!!» رجعت إلى الرحى تديرها وتغني بألحان حزينة عن الأزمنة الغابرة حيث الفرسان، والبطولات.. قالت ضاحكة: «يا خسارة! لم ألد بطلاً.. ليتك ورثت الشجاعة عن جدّك الذي كان يقطع رؤوس الأعداء، ثمّ يلعق خنجره.. جدّك الذي كان له شارب أسود كثيف تجثم فوقه الطيور.. لقد مضى ذلك الزمان برجاله الصناديد.» حاول أن يبلع وجعه، حتى لا ترميه بالجبن.. عادت تثرثر، وهدير الرحى يدوّي، ويدها المطوّقة بالأساور تقذف بحفنات الشعير لتحيله إلى دقيق ساخن مختلط بالنخالة. قالت بامتعاض: «جدّك يرحمه الله كان فحلاً تزوّج بعشر نساء.. يتزوّج،

ويطلّق، ويتزوّج.. وأنجب العديد من الأولاد والبنات، حتى أسلم روحه إلى سيّدنا عزرائيل تاركاً وراءه قبيلة من الرجال والنساء.. ليرحمك الله ياأبي».

انقضى الصيف بأجوائه القائظة، وها هو الخريف بسمائه الملبّدة بالغيوم، والسحب الشفيفة المندحرة أمام الرياح. الأشجار تباشر عريها ملقيةً بأوراقها الذابلة الصفراء معلنة الاحتضار. وها هي زرافات التلاميذ الصغار في طريقها إلى المدارس بوجوه طافحة بالبهجة والفرح.. نسي الصغير جرحه المندمل، وذلك الدرب المترع بالشمس، والأتربة الملتهبة، والرمضاء، والحقل المطوّق بوشيع الصُبَيْر.. فرحه بدخوله المدرسة أنساه كلّ الأيام الحافلة بالهموم الصغيرة، والعبث البرّي.. جدّته ابتاعت له حقيبة خشبيّة ذات مقبض معدنيّ من النقود التي تحصّلت عليها من بيع ثمار الزيتون.. أخته الأكبر منه ابتاعتا له دفاتر، وقلماً ومبراة، وضمّته أمّه لصدرها بحنان، وها هي تودّعه إلى المدرسة. انطلق يرفل في حلّة قشيبة: قميصه الأبيض، وسرواله الأزرق، وحذاؤه المطّاط البنيّ اللون.. يمشي في خطوات جذلى في باحة المدرسة، وقف في طابور طويل.. عرف الاستراحة واللعب في الباحة مع أترابه الصغار، وعند انتهاء الدروس، يكرّ راجعاً إلى كوخهم، ينساب في الدروب مع جموع التلاميذ. لم يعد فتى متشرّداً، يبعثر أيامه في اللعب، والأعمال التافهة.. اليوم يطرق أبواباً جديدة، ليغمره ذلك الشعاع الدافئ الحنون.. ذات صباح خريفيّ ماطر رآها تجلس إلى جوار والدها في عربة بيضاء. كانت في حوالي العاشرة، ذات شعر أسود مقعوص إلى الوراء كذيل الحصان، وعينين سوداوين ناعستين، بيضاء، ذات وجه مشرب بحمرة خفيفة.. تحرّكت العربة من أمام باب ذي مصراعين شبيه بأبواب القلاع القديمة.. رأى الوَشِيع الذي يذكّره بثمار الصُبَيْر، وتلك المطاردة.. وها هو الرجل الشرّير الذي عرف في قرية الصفيح بقسوته.. وها هي ابنته.. جميلة كزهرة يانعة.

هاهي تتطلّع من وراء زجاج النافذة قابعة إلى جوار والدها في عربة بيضاء تهدر عبر الطريق.. يرمقه سكّان الأكواخ بنظرات عدوانيّة حاقدة. أمّا الصغيرة فكانت تبتسم لكل من تراه، وفي المدرسة تحاول الانخراط في اللعب مع الأطفال، لكنهم يهابونها، ويهربون بعيداً عنها.. وذات مرّة، وبينما كانت تلعب في باحة المدرسة، سمعت إحدى التلميذات تقول عن أبيها إنه رجل قاس وشرّير.. يومئذ أخذت تبكي بحرقة، حتى مجيء الناظرة لتسكتها عن البكاء.. أخبرت أمّها بذلك عند رجوعها إلى البيت.. فسمعت أباها يقول بصوته الأبحّ: «لا تلعبي مع بنات اللصوص.. ذات يوم، إذا نجحتُ في البرلمان، فسوف أجيء بالجرّار (البلدوزر) لهدم هذه الأكواخ القذرة.» في ذات ظهيرة، وكان يوم جمعة، نعم الحقل بعبق أزهار الليمون، وظهر عدد من النسوة يطفن حول القدور، ونار مستعرة في أعواد الحطب، وثمّة قفف ملأى بأزهار الليمون البيضاء.. كانت النسوة منهمكات في تقطير الأزهار، وملء الزجاجات التي يحملها صاحب الحقل إلى المدينة لبيعها هناك. النخيل مثقل بالعراجين ذات البلح الأصفر المتساقط بفعل الرياح، والعصافير فوق الأعشاب، وعند الجذوع.. هتف صاحب الحقل في إحدى الخادمات بصوته الأبحّ: «أنت يا امرأة.. احضري لي الرَاقُول أودّ الصعود إلى النخلة..».

أشار بإصبعه الى نخلة سامقة متوحّدة في طرف قصيّ من الحقل.. هناك عند شجرة التين اليابسة. ردّت الخادمة بصوت مرتبك يخنقه الخوف: «سيّدي.. ثمّة ثعبان يختبىء في جذع شجرة التين.. لقد شاهدته يزدرد أحد الخرانق.. حذار يا سيّدي.» هتف بصوت قويّ: «كفّي عن الثرثرة أيّتها الغبيّة.. قلت لك احضري الرَاقُول.. هيّا أسرعي.» مشت إلى حيث أشار إلى داخل البيت ذي الفناء الوسيع.. تسلّق النخلة بخفّة.. من القمّة تراءت له أكواخ الصفيح بقعاً سوداء، يرتفع منها الدخان.. تأمّلها بقرف وتقزز، ودّ أن يبصق عليها بصقة كبيرة لزجة تغرق كائناتها البائسة.. تراءى له الأطفال يلعبون عبر الدروب الملتوية.. نساء بأرديتهنّ ذات الألوان الفاقعة.. طفق يذبح عراجين النخلة بالمنجل ليضعها في القفّة.. ومن حين لآخر يولج يده بين ليف النخلة متحاشياً الأشواك الضارية. صرخة قويّة مدويّة، تمزّق صمت الظهيرة.. اهتزّت لها النخلة، وفزعت منها العصافير. تلاها ارتطام شيء بالأرض.. هرع الخدم عبر المجازات إلى النخلة، وجدوه كتلة من اللحم النازف المرتعش. علت صرخات مفجوعة تتعالى مع الطيور الهاربة، وأعمدة الدخان.. هرع أهالي الجوار إلى مصدر الصراخ.. يجذبهم الفضول، ولجوا إلى داخل الحقل المخيف لأوّل مرّة، اجتازت الجموع الباب الكبير. جاست أقدامهم المجازات وكأنهم في حُلم.. ملأ سكّان الأكواخ عيونهم المشدوهة.. تقدّم ذلك الصبي الذي لُوحق ذات يوم.. اقترب من الفتاة الباكية. صافحها، ومدّ يده بزهرة صفراء، ومسح عن عينيها الدموع، كما احتضنتها امرأة من سكّان أكواخ الصفيح. تداعى الوَشِيع، وخرجت الطفلة اليتيمة لتلعب مع أطفال الأكواخ البائسة.